أ.د. الشيخ علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

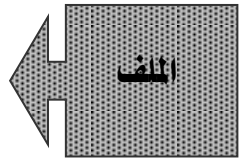

نبذ الطائفية في الخطاب الإسلامي

يجب على الداعية أن يتقن ثلاثة أشياء، الأول: هو الاتصال بالأصل؛ وذلك بمعرفة النموذج المعرفي الإسلامي. والثاني: هو الارتباط بالعصر؛ وذلك بمعرفة سماته. والثالث: هو الوصل بينهما بحيث يكون لا تنافر، ويستطيع أن يغير الواقع بمؤسسات وأفكار تتناسب معه.

أولاً: النموذج المعرفي

يبدو أننا في حاجة لصياغة النموذج المعرفي الذي يُكوّن عقل المسلم بناء على عقيدته ورؤيته الكلية للإنسان والكون والحياة وما قبل ذلك وما بعده، ذلك النموذج الذي يمثل الإطار المرجعي والمعيار المعتمد في عقل المسلم ونفسيته وهو المكون الأساسي لشخصية المسلم والضابط لفكره.

نريد أن نعيد صياغة ذلك النموذج حتى نجيب به على الأسئلة الكلية الكبرى في حياة الإنسان، ورؤيته لنفسه ولما حوله، وحتى نواجه به متطلبات العصر، وحتى يفهمنا الآخرون على أقل تقدير، إذا لم ينبهروا بهذا النموذج ويسعوا إلى اعتناقه والإيمان به وتبنيه.

والنموذج المعرفي هذا سنراه موجوداً في وجداننا، ومصادر بنائه في عقائدنا وأحكامنا، ولكن إعادة الصياغة ستمكننا من تفعيله ومن جعله أساسا للحياة.

١. أجاب المسلم بموجب عقيدته على السؤال الكلي الأول من أين نحن؟ وهو سؤال متعلق بالماضي، ولكنه نشأ من حيرة الإنسان وجهله الحسي بنشأته ومبتدئه،

كالطفل الصغير يسأل من أين أتيت؟ إنه لا يتذكر يوم ولادته، ولم تكن عنده القدرة على ذلك، قال تعالى: ﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾(١)، فأجاب المسلم بناء على إيمانه: الله خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان وهو خالق كل شيء: ﴿ الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾(٢).

٢. والمسلم يؤمن بالتوحيد ليس فقط توحيد الإله، بل توحيد شمل كل شيء في بنائه العقائدي، فنبيّه(ص) واحد؛ لأنه خاتم قال تعالى: ﴿ رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾(٣)، وكتابه واحد؛ ولذلك حفظه من التحريف والتخريف وجعله واحداً لا تعدد له، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٤)، والأمة واحدة قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٥)، والقبلة واحدة، قال عزوجل: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(٦)، والرسالة واحدة عبر الزمان قال سبحانه: ﴿ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(٧)..

والتوحيد بهذا المعنى الذي اشتمل على الأشياء والأشخاص وتعدى الزمان والمكان، لابد أن يؤثر في عقل المسلم المعاصر أن يكون أساساً لفهمه للحياة ولتعامله مع الأكوان خاصة الإنسان.

٣. وهو يؤمن بأن الله لم يدع الخلق بلا تكليف، فهناك شرائع وكتب ووحي قال سبحانه وتعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾(٨)، ولكن جعل الإسلام هذا اسم الديانة التي يرضاها عبر التاريخ من لدن آدم إلى سيدنا محمد(ص) قال تعالى(إن الدين عند الله الإسلام) (٩) وقال سبحانه: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾(١٠).

وقضية التكليف تجيب ـ أو ينبغي أن تجيب ـ على السؤال الثاني ماذا نفعل هنا؟ وأسس هذا التكليف ثلاثة، أولها: عبادة الله، تلك العبادة التي يجب أن تُنشئ إنسان العمارة والحضارة قال سبحانه وتعالى: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾(١١) وثانيها: عمارة الأرض، وذلك بنشاط التعمير والامتناع عن نشاط التدمير قال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركُم فيها﴾(١٢) ، أي طلب منكم عمارتها، وقال

سبحانه: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[١٣]. وثالثها: تزكية النفس قال عز من قائل: ﴿قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾[١٤].

٤. ويؤمن أن هناك يوما آخر للحساب ـ الثواب أو العقاب ـ قال سبحانه وتعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شراّ يره﴾[١٥] ، وهذا الإيمان يؤثر في سلوك المؤمن بالإحجام والإقدام، فتراه يقدم على الشيء الذي فيه مشقة أو فوات لذة إذا رأى إن ذلك يقربه من الجنة ويترتب عليه الثواب، وتراه يمتنع عن شيء فيه لذة ويحجم عنه، لأنه يراه يقربه من النار، وهذا مرتبط بقضية الإيمان بالله والإيمان بالتكليف، ويؤثر على الحياة، ويجب أن يؤثر عليها بصورة إيجابية وإلا تحول الخوف والرجاء أسباب لإعاقة الحياة، وفي الحقيقة إن الله شرعها لحماية الحياة، ولدفعها، فإذا كانت تصرفاتنا قد حولتها إلى عائق للحياة كان ذلك ضد مقصود الشرع الشريف.

فالحج شُرع لحفظ النفس في كل صورها، فلا ينبغي أن نحوله إلى ما يدعو إلى قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، حيث يجب علينا أن ندرك الزمان وما حدث فيه، والمكان وسعته والأشخاص ومدى علمهم بدينهم والأحوال وما طرأ عليها من تغير، فنحقق مقصود الشرع منه.

هذه الأسئلة الثلاثة الكبرى أنشأت مجموعة من المكونات العقلية التي أسست شخصية المسلم والتي نرجو أن يعود إليها المسلمون على وجهها التي أنزلها الله من أجله وأن يفهموا مراد الله من وحيه.

٥. ويؤمن المسلم بالمطلق لأنه آمن بأن الله لا نهائي ولا محدود، واللانهائي اللامحدود أتت من إيمانه بأسمائه وصفاته، فأسماء الله الحسنى التي وردت في القرآن والسنة تمثل الهيكل التربوي للمسلم قال سبحانه وتعالى: ﴿ولله الأسماء الحُسنى فادعوه بها﴾ [١٦]،والأسماء التي وصف الله بها نفسه في كتابه أكثر من ١٥٠ اسماً وقد ورد في السنة أكثر من ١٦٠ اسما ومجموعهما ٢٢٠ اسما بعد حذف المكرر، وهذه الأسماء والصفات يمكن تقسيمها إلى صفات جمال: كالرحمن والرحيم، والعفو الغفور، وصفات جلال: كالمنتقم الجبار، الشديد المحال، وصفات كمال: كالأول والآخر والظاهر والباطن، وكل ما يوصف به الله.

٦. المؤمن يتخلق بصفات الجمال، ولا يتخلق بصفات الجلال بل يتعلق بها، فيعفو ويصفح، ويمسك نفسه عند الغضب قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ

تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتّقوى﴾[١٧]، وقال سبحانه: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير، وأقيموا الصّلاة وآتوا الزكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾[١٨]، ومن هنا وصف الله الصبر على أمره الكوني أو أمره الشرعي بالصبر الجميل ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾[١٩]. ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾[٢٠]. ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾[٢١]، والتخلق بالجمال والتعلق بالجلال والإيمان بالكمال من مكونات العقل المسلم.

٧. والمؤمن يرى أن الإنسان مُكرّم، وأنه ليس مجرد جزء من الكون قال تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفصيلا﴾[٢٢].

فالإنسان كائن فريد في هذا الكون؛ لأنه متحمل للأمانة قال تعالى: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوما جهولا﴾[٢٣].

ويرى المؤمن أن الإنسان سيد في هذا الكون، وليس سيد له، فالسيد هو الله قال(ص): (السيد الله تبارك وتعالى)[٢٤]، فإن الكون يسبح: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً﴾[٢٥]، ويسجد كذلك لله سبحانه وتعالى: ﴿ألم تر أنّ الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدّواب﴾[٢٦]، ولكن المؤمن وهو يسير في عبادة الله يسير سير السيد، وليس سير الجمادات: ﴿وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[٢٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض بإذنه إنّ الله بالنّاس لرؤوف رحيم﴾[٢٨].

٨. ويعتقد المؤمن أن للزمان والمكان والأشخاص والأحوال حرمة، ويراعيها في تعامله معها، فتراه يقدس ليلة القدر: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾[٢٩]، ﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[٣٠]، ويقدس الكعبة: ﴿إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة مباركا وهدى

للعالمين﴾[٣١]، وقال النبي(ص): ﴿وما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والّذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله ودمه وأن نظن به إلا خيراً﴾[٣٢]. ويقدس المصحف: ﴿لا يسمه إلا المطهّرون﴾[٣٣]، وينزل النبي(ص) منزلة عظيمة: ﴿لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾[٣٤]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٣٥].

ومن مجمل ذلك كله تتكون عقلية المسلم ونفسيته، لتكون شخصية متميزة ترى أن الدعوة عامة، وأن الله سبحانه وتعالى كما أرسل الرسل بالعهد القديم، والعهد الجديد، فقد ختمهم برسول الله(ص) الذي أنزل معه الأخير، وجعل الله سبحانه وتعالى الأمة واحدة من لدن آدم إلى يومنا هذا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[٣٦].

وهذا النموذج المعرفي ينبغي أن يكون منطلقاً للتقويم، ومعياراً لقبول ما هنالك من أفكار البشر وتوجهاتهم، ومبدءاً، الخطاب الذي يتوافق مع إدراك الواقع بعوالمه المختلفة.

٩. يُكوِّن عقل المسلم مجموعة من الإدراكات للسنن الإلهية يراها فيما حوله من الكون الفسيح حتى قال أبو الهتاهية:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولقد تكلم القرآن عن هذه السنن الإلهية، وبينها والتي تعد البيئة الخارجية للنشاط البشري، وتتحكم في المسلم عند نشاطه واختياراته ووضع برامجه وأهدافه، حتى إذا ما غابت هذه الإدراكات عن ذهن مسلم، فإنه يتخبط ويفقد المعيار السليم للقرار السليم، ويضع استراتيجيات أخرى غير التي أمر الله بها.

ونذكر من تلك السنن ثلاثة مع أنها تزيد عن خمسين سنة:

أـ سنة التكامل:

خلق الله سبحانه وتعالى الأكوان مختلفة في ظاهرها، لكنها متحدة في الهدف والغاية، فهذا الخلاف والاختلاف إنما هو للتنوع وليس للتضاد، فالليل والنهار يشكلان يوما

واحداً، لكل منهما خصائص، والذكر والأنثى لكل منهما خصائص، ولكل منهما وظيفة، والحاكم والمحكم لكل منهما وظيفة، والغني والفقير، وأغلب الثنائيات الخلقية أو القدرية، فالخلقية كالليل والنهار والذكر والأنثى، والقدرية كالحاكم والمحكوم والغني والفقير، سميناها قدرية لنفرقها عن الخلقية، وإن كان فيها سعي للإنسان واختيار وكسب، إلا أنها من فضل الله وقدره أيضاً.

إن فهم سنة التكامل يجعل أصل الخلق عند المسلم هو التكامل وليس الصراع، ولذلك يفهم العلاقة بين الذكر والأنثى على أنها خلقت للتكامل، بخلاف التوجه الذي يدعو إلى أن الأصل هو الصراع، وأنه يجب على المرأة أن تصارع الرجل لتحصل على حقوقها، وأن المحكوم يجب أن يصارع الحاكم للحصول على حقوقه، وأن الإنسان يجب أن يصارع الكون حتى يحصل منه منفعته، على ما استقر في الفكر الإغريقي من فكرة صراع الآلهة وانتصار الإنسان في النهاية عليها.

وفهم سنة التكامل لا ينفي حدوث الصراع أو إمكانية حدوثه ووقوعه، ولكن هناك فرق بين أن نجعله أصلا للخلقة لا يمكن الفرار منه، وبين أن نجعله حالة عارضة يجب أن نسعى لإنهائها حتى تستقر الأمور على الوضع الأول الذي خلقه الله.

هذا التكامل هو الذي يفرق عند فهمه بين المعنى الروحي للجهاد في سبيل الله وبين الحرب التي تشن هنا وهناك لأجل المصالح والهيمنة والاستعلاء في الأرض والفساد فيها أيضا.

فأنظر إلى قوله تعالى في أول سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾[٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٩]، وقال تعالى:﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤٠].

فالجهاد في سبيل الله منه أصغر وأكبر، والصغر والكبر إنما يعود إلى الزمن الذي

يستغرقه كل واحد منهما قال رسول الله(ص): (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس)[٤١]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[٤٢]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤٣].

فالجهاد بالقتال لا يستغرق إلا مدة المعركة وهي قليلة على كل حال، أما الذي يمتد العمر كله، ويعم الناس كلهم والأرض كلها هو جهاد النفس.

وجهاد القتال يجود فيه الإنسان بنفسه من أجل سعادة غيره ففيه معنى الفداء، فوصفه بالأصغر لا يقلل من علو شأنه وأهيمته، ولكنه يشير إلى مدته، وأنه صراع عارض لأجل الرجوع إلى حالة الاستقرار والتوازن التي خلق الله الناس عليها أول مرة.

من أجل ذلك رأينا أن القاتل غير المقاتل، وأن من قتل أول مرة عليه وزر من اتخذ هذا سبيلا له عبر التاريخ ويقص علينا ربنا قصة ابني آدم من أجل هذه العبرة، فيقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ، إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤٤].

فقد يتبين منها أن الجهاد في سبيله غايته الفلاح وإنهاء الفساد في الأرض والخروج

عن مفهوم القتل الذي جعله الله علامة على خذلان ابن آدم وعقابه إلى مفهوم القتال؛ لرفع العدوان، ورفع الطغيان، وعدم السكوت على إنكار المنكر، وعدم السكوت على الإفساد الخسيس للأرض.

ب – سنة التدافع:

وهي سنة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٤٥).

وهذا التعبير القرآني يبين حقيقة علو القرآن على التفاسير التي خطها البشر، فهو لم يحصر هذا في القتال أو النزاع والخصام ـ كما ورد في التفاسير ـ عبر التدافع ليشمل كل أنواع التعاون والاختلاف بل والصراع والصدام للوصول بكل وسيلة إلى الاستقرار وتحقيق مراد الله من خلقه: عبادة، وعمارة وتزكية.

فالتدافع سنة إلهية تبين أن الإنسان قد خلقه الله سبحانه وتعالى اجتماعيا يحتاج إلى الآخرين، وهم يحتاجون إليه، فلم يخلقه منعزلا قادرا على البقاء وحده حتى يحقق مراد الله من خلقه، بل إنه لابد أن يعمل في فريق ليصل إلى هدفه، وعمله في الفريق وحراكه الاجتماعي ونشاطه الذاتي يحتاج إلى إدراك سنة التدافع، وإدراك هذه السنة يتولد منها قوانين كثيرة لضبط هذا النشاط والحراك، وعليه فإن عملية فكرية لابد أن تسبق النشاط، وهو ما قد يكون الإنسان العصري قد افتقده حيث سبق النشاط الفكر، وكان ينبغي أن يسبق الفكر النشاط ويسبق حديث القلب أيضا الفكر ولهذا موضع آخر يشرح الفرق بين الآمرين.

ج – سنة التوازن:

وهي سنة قد أشار الله إليها كونيا، قال تعالى: ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾(٤٦)، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(٤٧)، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾(٤٨)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٤٩).

ونرى مرة ثانية أن الاستقرار هو الأساس الذي يجب أن ينتهي إليه النشاط الإنساني بعد التوتر الذي يبدأ به، وإذا تحدثنا عن مثل هذه السنة لرأينا أنها سنة كونية وسنة قيمية، ونأخذ منها موقفنا من قضايا البيئة وموقفنا من قضايا الفكر، وموقفنا من مفهوم العدل خاصة إذا رأيناها تمتد إلى الآخرة والحساب وتمثل دالاً على عدل الله

سبحانه، قال تعالى: ﴿ ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٥٠]، وقال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[٥١]. والذي لابد للإنسان أن يتمثل به ثم يأتي التكليف على وفق هذه السنة مشيراً إلى أن التكليف بالأحكام مرتبط ارتباطا تاما بالسنن الإلهية المحيطة بنا، وأن تطبيق هذه الأحكام من خلال فهمنا للسنن وتفاعلنا معها هو الضامن لتحقيق هدفها والوصول إلى مقاصدها يقول تعالى: ﴿فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥٢].

١٠- إن دراسة السنن الإلهية بل واستقلال علم بدراستها وبيان علاقتها مع المبادئ العامة القرآنية التي تكوّن أيضا عقل المسلم من فوح قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

إلى آخر ما هنالك من أسس ومبادئ تبين أن الضرر يزال واليقين لا يرفع بالشك، والأمور بمقاصدها ونحو ذلك.

أقول إن دارسة السنن الإلهية أصبح واجبا يمكن أن يفيد الإنسان والإنسانية بنظرة جديدة لمجموعة العلوم الاجتماعية والإنسانية ويمكن بهذه النظرة أن تتهيأ لتجديد علمي واع للخطاب الديني.

١١. لقد ألف المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون عن السنن الإلهية، ودعا الشيخ رشيد رضا في المنار إلى الالتفات إليها، ومن المحدثين تكلم عنها د. جمال عطية، وكتبت السيدة زينب عطية موسوعة لها، وللدكتور عبد الكريم زيدان كتاب مستقل، وهناك إسهامات د. مصطفى الشكعة وتلامذته في هذا الشأن، أما الدكتور سيف عبد الفتاح في كتابه مدخل القيم يعد محاولة جادة رصينة لبدء تكوين هذا العلم الذي قد يصل بنا إلى بناء علم أصول فقه الحضارة بعد أن وضع الشافعي علم أصول فقه النص الشريف.

إن توليد العلوم والذي توقف في القرن الرابع الهجري، وتوليد الحضارة منها على

مقتضيات العصر الذي نعيشه هذا هو الأصل في تجديد الخطاب الديني بعيدا عن الجهالة وعن الأماني وعن الآمال التي قد تخطر ببالنا مع كسل مريع في تحصيل العلم.

١٢. إدراك الواقع بعوالمه المختلفة جزء من أجزاء تجديد الخطاب الديني، ولابد علينا من تحديد معنى الواقع المعاش الذي نحياه ونتعامل معه، والواقع له عوالم خمسة: عالم الأشياء، عالم الأشخاص، عالم الأحداث، عالم الأفكار، وعالم النظم، ويمكن أن نضيف إليها كل يوم ما يتناسب مع استقراء الواقع، وتحليل مكوناته.

كما أنه لابد علينا أن ندرك أن هذه العوالم الخمسة في غاية التركّب والتداخل، وليست منفصلة بأي صورة من الصور، مما يجعل من إدراك العلاقات البينية بين كل عالم فيها مع العوالم الأخرى جزء لا يتجزأ من فهم الواقع الفهم الدقيق الواضح، وأيضا لابد علينا أن ندرك أن هذه العوالم ليست ثابتة، ولذلك فلابد من تفهمها في تغيرها الدائم المستمر باعتبار أن هذا من سنن الله في كونه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(٥٣).

١٣. إن عالم الأشياء يحتاج إلى منهج في التعامل معه مرده إلى العلم التجريبي الذي حقق عند المسلمين وغير المسلمين نجاحا باهرا في تسخير الكون والاستفادة منه وتحصيل القوة في مجال الصحة والحياة اليومية والعلم... إلخ. نحو حياة أفضل، والعلم التجريبي يجب أن نتخذه في ظل مفاهيم واضحة وهي:

(أ) أنه ليس هناك حد للبحث العلمي من أي جهة كانت، فإن الأمر عام ومطلق في شأن تحصيل العلم، وذلك في آيتين حاسمتين الأولى تفيد العموم والأخرى تفيد الإطلاق قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾(٥٤). فأمر بالسير على عمومه، وبالنظر على عمومه وقال تعالى:﴿قل هل يستوي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٥٥)، فأطلق العلم ولم يحدد: يعلم ماذا؟ هل يعلم الكونيات أو الشرعيات أو المفيد أو غير المفيد؟

(ب) ومن المناسب أن ننبه أن العلم في لغة القرآن هو ذلك الذي يوصل إلى الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾(٥٦)، والعلماء جمع عليم، وليس جمع عالم، فجمع عالم عالمون وجمع عليم علماء، مثل حكيم وحكماء، وخبير وخبراء، وفقيه وفقهاء، قال تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٥٧).

(ج) لابد أن يلتزم التطبيق العلمي واستعمال العلم في الحياة بالأخلاق والأوامر والنواهي الربانية التي تريد للإنسان حياة سعيدة قوية تؤدي إلى التعمير ولا تؤدي إلى

التدمير، تؤدي إلى حرية الإنسان والاختيار ولا تؤدي إلى سلب إرادته والإجبار، تؤدي إلى المساواة بين البشر ولا تؤدي إلى عبادة بعض البشر للبشر، وهيمنة الشمال على الجنوب، والقوي على الضعيف، فلا نتوصل بالاستنساخ أو الجينوم أو الهندسة الوراثية أو التدخل البيولوجي أو علوم الفضاء إلى الفساد الاجتماعي، أو الهيمنة التي تصل المصالح لبعضهم على حساب الآخرين، أو تؤدي الخريطة الجينية إلى التسلط على الإرادة والتلاعب بالاختيار.

(د) لابد من التخلص من عقلية الخرافة، وهي العقلية التي لا تفرق بين المجالات المختلفة، ولا تقيم الدليل المناسب لإثبات القضية محل النظر، ولا تتبع منهجاً واضحاً محدداً من قبل في التعامل مع الحقائق، ولا تعتمد مصادر للمعرفة، وهذه العقلية الخرافية التي نريد أن نتخلص منها لابد أن يكون ذلك في مجال الحس، ومجال العقل، ومجال الشرع، فهذه المناهج المختلفة التي تدعو إلى الانتحار أو الانبهار أو الاجترار أو الانحسار أو الاغترار مناهج مرفوضة، فمنهج الانتحار الذي يؤدي إلى التكفير المؤدي في نهاية الطريق إلى التدمير والتفجير مرفوض، ومنهج الانبهار بالآخر والتعدي على مصادر الشرع من كل غير متخصص بين الإفراط والتفريط حتى يخرج علينا من ينكر الإجماع، أو يخرج عن مقتضيات اللغة، أو عن هوية الإسلام أو يحول الإسلام إلى لاهوت التحرر أو لاهوت العولمة.

ومنهج الانحسار الانعزالي الذي يؤدي إلى الفرار من الواقع الذي يشبه الفرار يوم الزحف منهج مرفوض أيضا، باعتبار أن مخالطة الناس والصبر عليهم خير عند الله من العزلة قال تعالى: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾(٥٨).

وقال رسول الله(ص): (المسلم إذا كان مخالطا للناس ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس لا ويصبر على أذاهم)(٥٩).

أما منهج الاجترار فإنه يتمثل في التمسك بمسائل التراث تمسكا يحكي صورتها دون الوقوف عند مناهج التراث والتجريد أمامها حتى يمكن تطويرها إن احتاجت إلى تطوير أو الاستفادة بها حتى على حالها إن كانت تصلح لذلك.

فهو منهج (ما ضوي) إن صح التعبير يريد بإصرار أن نتغاضى عن واقعنا، وأن نستمر في واقع قد تغيرت عليه الحياة، حتى رأينا كثيراً من الناس يخرجون من دين الله أفواجا لظنهم أن هذا هو دين الله، وأن دين الله بذلك من طبيعته ألا يصلح لزماننا

هذا، وهو وهم خاطئ ومخطئ، خاطئ لأنه مخالف للحق، ومخطئ لأنه مخالف للواقع.

أما منهج الاغترار فنراه عند كثير من خارج الدراسات الدينية الأكاديمية، الذين أقحموا أنفسهم في مجال الكلام في الشرع الشريف تشهياً لإصلاح الدين بزعمهم، تارة أو للإدلاء بآرائهم التي يرونها مهمة تارة أخرى، وقد نراه أيضا عند الدارسين الدراسات الشرعية في مراحلها الأولى، مع ظن لا يتناسب مع ظن العلماء الراسخين في العلم؛ حيث يعتقدون أن لهم الحق في تجديد الدين غافلين عن قلة بضاعتهم الشرعية من ناحية، والمسافات الشاسعة بينهم وبين إدراك الواقع من ناحية أخرى، وهنا يجدر بنا أن ننبه على فارق مهم بين البحث(في) علم ما وبين الكلام (عن) ذات العلم، والفرق بين (في) و(عن) أن (في) تستلزم استكمال العملية التعليمية بعناصرها الخمسة: الطالب، والأستاذ، والكتاب، والمنهج، والجو العلمي، وهي عملية تهتم بالمعرفة وبالقيم وبتربية الملكات، وتحتاج لكي يبرز نتاجها في الواقع إلى التفرغ والتخصص والأدوات وطول الزمان، بالإضافة إلى الاستعدادات الفطرية من الذكاء باعتباره قوة ربط المعلومات والحرص على تلقي العلم الذي يمكن أن نسميه بالهمة، وبذل الجهد المستمر.

ولقد أشار الشافعي منذ القدم إلى هذا مما يبين أن المنهج العلمي لا يختلف في ذاته وإنما قد يتطور في صياغاته حيث قال:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تأويلها ببيان

ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

والبلغة تعني التفرغ لطلب العلم، وأن عنده ما يكفيه من الأرزاق، وهو المعني الذي قامت به الأوقاف الإسلامية عبر القرون، فكان من أهم جهاتها الصرف على التعليم، وعلى الصحة وعلى الأمن الداخلي.

وهذا النمط من الاغترار هو أخطر الأنماط؛ لأنه قد حصل شيئاً من العلم الشرعي، إلا أنه لم تكتمل أدواته حتى يصل إلى مرتبة المجددين.

١٤. إن عالم الأشخاص قد برزت فيه الشخصية الاعتبارية التي يجب أن نهتم بدراستها دراسة أخرى غير ما ورد عن الشخصية الطبيعية في الفقه الإسلامي، فإن ما ورد في ذلك الفقه عن الشخصية الطبيعية صحيح، ولكن الشخصية الاعتبارية ينبغي أن يكون لها أحكام أخرى تتوافق مع مصالح الناس، وتحقيق المقاصد الشرعية. إن سحب

أحكام الشخصية الطبيعية على الشخصية الاعتبارية أمر لم يعد مناسبا وفيه تغبيش على الواقع الذي نريد أن ندركه.

ولقد استقر في الفقه الإسلامي أن الأحكام تتغير بتغير الزمان إذا كانت مبنية على الأعراف الزائدة، والتقاليد المستقرة أو المتغيرة، فباختلاف تلك الأعراف والتقاليد من زمان لزمان، أو من مكان لمكان تتغير الأحكام، كما تقرر أن الأحكام تتغير بين ديار المسلمين، وغير المسلمين في مجال العقود؛ لأن المسلم الذي يقيم في بلاد غير المسلمين ينبغي عليه أن يمارس حياته بصورة طبيعية، ولا ينعزل في حارات من غير اندماج في مجتمعه، بل يجب عليه هذا الاندماج؛ لأنه أولاً وأخيراً مأمور بالدعوة إلى الإسلام بمقاله أو بأفعاله أو بحاله.

وكما قال رسول الله(ص): (كل ميسر لما خلق له)[٦٠]، ولا يتحقق له ذلك إلا إذا اختلفت أحكام العقود التي بينه وبين غير المسلمين في ديار غير المسلمين عن أحكام ذات العقود نفسها في ديار المسلمين، وهو مذهب أبي حنيفة (رض)، قال ما دام ذلك برضى أنفسهم، وقال: لأن هذه الديار ليست محلا لإقامة الإسلام، وهي نظرة واقعية للحياة من ناحية، ولطبيعة الدين الإسلامي في دعوته بالأسوة الحسنة من ناحية أخرى قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [٦١]. والرسول في حقيقته إنما بعث كما قال عنه نفسه رحمة مهداة قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٦٢] فلابد أن يكون أتباعه كذلك.

١٥. عالم الأحداث والخطاب الديني يجب أن يتعلم تحليل المضمون وكيفية استعمال هذا التحليل، وقد ورد في الحديث النبوي عن حكمة آل داود: (على العاقل أن يكون عالما بزمانه ممسكا للسانة مقبلا على شأنه)[٦٣].

وعالم الأحداث مركب في الحقيقة من الأشياء والأشخاص والوقائع والعلاقات البينية، وهو أكثر العوالم تداخلا وتسارعا؛ حتى نرى أن وكالات الأنباء الستة الكبرى تبث كل يوم ١٢٠ مليون معلومة أغلبها أحداث مما يبين أهمية هذا الجانب ونحن هنا ننبه إليه فقط فنتكلم بشيء (عنه) ولا نتلكم بشيء (فيه).

١٦. عالم الأفكار والنظم، وعسى أن نفرد لهذا المجال كلاما مستقلا لشدة أهميته، وباعتباره أساساً لكثير من السلوكيات والتطبيق.

إن إدراك هذه العوالم لا يكفي وحده دون إقامة علم ديني لإدراك العلاقات البينية والاستعداد لتداخلها ووضع الطرق المناسبة التي تحقق مقاصد الشرع الشريف من حفظ النفس والعقل والدين وكرامة الإنسان وحفظ الملك على الناس، وهي المقاصد العليا التي أشار إليها الأصوليون والتي أفردها الشاطبي في كتابه الموافقات، وهي التي أيضا تمثل فكرة تقارب فكرة النظام العام في النظم القانونية المعاصرة.

ومن مجمل ما ذكرنا يتضح لنا أهمية دراسة النموذج المعرفي سواء في جانب الرؤية الكلية أو السنن الإلهية أو القيم العليا أو المبادئ القرآنية أو إدراك الواقع من خلال ذلك كله مع الحفاظ على الهوية الموروثة التي تمثل الحقيقة عند المسلمين.

ثانياً: كيف نفهم النص بعمق؟

كيف يغير هذا الواقع بمؤسسات وبأفكار وبعقود تتواءم مع هذه الأحكام التي قد حصلها من النص؟ هذا الواقع يدفع العالم أن يبدع ولا يبتدع، فيبدع بمعنى أن ينشئ ما لم يكن قد نشأ من قبل، ولا يبتدع بمعنى ألا يخرج عن مقتضيات ذلك النص الكريم الشريف وهو الوحي؛

تتألف أداة التعامل مع العلوم التراثية لتأسيس «الفهم» من مكونات عدة، لعل من أهمها مكوّنين رئيسين : الأول ـ عناصر الرؤية للعالم الخارجي عند الكاتبين للتراث الإسلامي، والثاني ـ الأداة اللغوية التي يمكن أن نفهم النص التراثي بها.

لكي أستكشف عناصر الرؤية التراثية للكون والوجود والإنسان والحياة، أحتاج أن أقوم برحلة في العقلية التراثية: عقلية الماوردي والجويني والغزالي والنووي وابن تيمية وابن حجر، والسيوطي .. الخ، هؤلاء الذين عاشوا في الزمن التراثي، والذين حازوا ـ ولابد ـ أدوات لفهم القرآن والسنّة، وأيضا حازوا رؤى معيّنة للعالم الخارجي.

تتلخّص الرؤية منتجي التراث للعالم الخارجي في عناصر معينة، وذلك بصرف النظر عن مصادرها؛ لأن مصادرها شديدة التركيب كما أشرنا من قبل: بعضها من العقائد الإيمانية، وبعضها مستقى من مطلق التأمل والتفكّر في الكون والأشياء وما وراءها، أو من خلاصة الفلسفة القديمة، أو من الاختلاط بحضارات أخرى تداخلت مع حضارة المسلمين كالهندية والصينية والفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية.. وأخيراً

الحضارة اليونانية بتنوعاتها، دون الوقوف فقط عند مدرسة أرسطو الأكثر شهرة ـ حيث كانت ثمة مجموعة كبيرة من الأفكار التي وردت عن أمثال فيثاغورث وسوفوكليس وسقراط وأفلاطون وغيرهم.

وهذا الترتيب للمصادر ليس مقصوداً بالضرورة، إنما ذكرتها لبيان أن هناك مصادر أخرى غير المصدر الأرسطي الذي عده البعض هو كل شيء أو المصدر الأوحد، وليس الأمر كذلك، فقد تعامل المسلمون مع هذا المنطق الأرسطي بالحذف والإضافة، ومع مصادر أخرى.

ومن الصعب ـ حتى عند أهل التراث ـ أن نتبيّن ـ بالضبط ـ من أين أتت هذه العناصر للرؤية الكونية؛ لأنها قد تأتي من أحد هذه المصادر أو من تفاعلها فيما بينها.. وأعتقد أن البحث فيها ليس مجدياً في هذا المقام؛ حيث نركز أساساً على مكونات الرؤية نفسها لا على مصادرها!

على كل حال نعود لنتساءل: كيف كانت هذه الرؤية التراثية؟!

هذه الرؤية هي التي عُني بها علم الكلام، وخلاصتها أنها كانت ترى هذا الوجود إما متحيّزاً أو غير متحيّز: والمتحيّز ـ لغة ـ إما أن يكون المائل المنصرف إلى جانب دون آخر، وإما أنه كل ما له حدود أو يشغل حيّزاً. والمتحيّز ـ في هذه الرؤية ـ إما بسيط ويسمى «جوهرا»، أو مركّب ويسمى «جسماً».

فالجسم ـ مثلا ـ كجسم الكائن الحي المركّب من عدة خلايا، بينما ما يمثل الجوهر هو الخلية الوحيدة أو المنفردة. فالجوهر هو أقل حالات المتحيّز، وكانوا يسمونه «الجوهر الفرد»؛ لأنه لا يقبل القسمة، ولو انقسم فني.. وهذا ما تبنّته الكثير من نظريات الطبيعة أو الفيزياء اليوم في مسألة انشطار الذرة.

وهذا التصور في «الجوهرية» ـ وإن أمكن أن يكون موجوداً بأكثر من مصدر من المصادر المذكورة ـ إلا أنه بالأساس مأخوذ عن العقيدة الإسلامية التي تقرر أن الله سبحانه وتعالى وحده ليس قبله شيء وليس بعده شيء، وليس كمثله شيء في الوجود، بل كل شيء مخلوق له، هو سبحانه وتعالى خلقه، والتي ترى أن التسلسل باطل، وأن ثمة نهاية لكل موجود في هذا الكون. فليس هناك ما هو «لانهائي» في موجودات الكون إلا إذا كان مقدّراً (كالمستقبل) أو وهميا.. وكل كائنات الكون المحسوس متحيزة بين بداية ونهاية.

ثم «غير المتحيّز» في هذا الوجود فيسمى «العرض»: وهو شيء موجود في غير لا يمكن أن يقوم بذاته دون غيره، مثل الصفات والأحوال: «كالفقر والغنى، والصحة والمرض، والسعادة والحزن، والقوة والذكاء واللون والطول.. الخ. كل هذه الصفات تمثل أعراضاً غير متحيزة بذاتها وتحتاج إلى محل تحل فيه. فلابد لنعرفها من وجد الفقير والغنّي والصحيح والعليل والسعيد والحزين والقوي والأبيض.. الخ.

والله سبحانه وتعالى غير ذلك وفوق ذلك.. ومن ثم فهو سبحانه وتعالى غير متحيّز لا هو جسم ولا جوهر، إلا إنه أيضاً ليس بعرض! والكلاميون قالوا بضرورة إخراج الحديث عن الله سبحانه وتعالى من هذه القصة وهذه التقسيمة. فحتى إذا قيل إنه «غير متحيّز» فإن عدم تحيّزه سبحانه وتعالى مختلف عن عدم تحيّز غيره!

ومن ثم رأوا أن المعلوم ثلاثة:

ـ الربّ تبارك وتعالى بصفات اللاهوت (الكمال) والرحموت (الجمال) والجبروت (الجلال).

ـ الملك، وهو ما يدرك بالحس بما فيه من عوالم الأشياء والأشخاص والأحداث.. ويمكنني أن أسيطر عليه بالميكر وسكوب أو التليسكوب أو بالحواس المجرّدة.

ـ الملكوت، وهو الموجود غير الواقع تحت الحس أو الحواس الظاهرة، كالملائكة والجن والأرواح.. الخ. لكن قد نصل إلى كشفه في يوم من الأيام.

وكل يوم نكتشف فيه شيئاً فإنه يدخل من عالم الملكوت إلى عالم المُلك الذي نراه يتزايد عبر التاريخ البشري، كاكتشافنا للكهرباء، الموجات، وكـ«الفيمتو ـ ثانية» وآلة التصوير التي نقلت التفاعل الكيميائي من عالم الملكوت إلى عالم المُلك (والذرة حتى الآن لا تزال في عالم الملكوت، حتى إن بعض المدارس لا تزال تنكر وجودها بناء على أمور فلسفية وأفكار فيزيقية معينة!).

كل هذه الأمور أثرت في العقلية المسلمة دون أن يقول أرسطو فيها شيئاً، إنما جاءت من اتباع ومتابعة العقيدة المستقرة.

وقد اعتمدوا على فكرة «الجوهر الفرد» هذه من أجل الإثبات العقلي والرياضي للوجود الإلهي ونفي المثيل. فقد نجم عنها رفض «التسلسل اللانهائي» رياضياً، مما أكد القول بأن إلى الله المنتهى، كما نجم عنها رفض مسألة «الدور» والتي تعني أن الأشياء بينها علاقة إيجاد متبادل: هذا أوجد ذاك وذاك أوجد هذا، بما يؤدي إلى حلقة مفرغة

تشبه قصة البيضة والدجاجة كما أشرنا من قبل. فقد رفضوا ذلك على أساس أنه لابد من «بداية» خلق الله عندها أحد السببين فكان سبباً للآخر.

هذا في المتحيّز، أما العرض فقد قال أرسطو إن له تسعة أنواع، إلا إن المسلمين رأوا أن التحقيق يصل بهذه التسعة إلى اثنين فقط مرتبطين بسبع صفات (أعراض) أو أكثر، وقد صاغوا تقسيمة أرسطو للأولاد والمتعلمين ـ ساعتها ـ في صورة أراجيز بسيطة، فقالوا:

زيد الطويل الأزرق بن مالك في بيته بالأمس كان مُتكي
بيده عود قد لواه فالتوى فهذه عشر مسائل سُوا

زيد:الشخص وهو الجوهر أو الجسم المتحيّز، وهو على الجوهرية لا الجسمية، بينما الأعراض التسعة هي:

الطويل: الكم، ومنه المتصل (كالمتر...) والمنفصل (كعدد حبات القمح).

الأزرق: الكيف، كاللون والصحة والذكاء... وغيرها.

ابن النسبة، المنسوب إلى مالك.

في بيته: المكان.

بالامس: الزمان.متكئ: الوضع: كراكع وساجد.

بيده: الملك، مثل «عندي» و«لي».

لواه: الفعل.

فالتوى: أثر الفعل.

هذا ما قالوه عن أرسطو، غير أنهم قالوا إن هذا كله يمكن أن يسمى «النسبة». وهذه النسبة لا تقتصر على هذه التسع فقط، فقد تكون أكثر منها بكثير. الأمر الذي يبين لنا أن تعاملهم معارف الآخرين قام كعملية انتقائية، لا كتقليد أعمى.

وإذا استطعنا أن نحدد هذه العشرة (المتحيّز والعرض بصفاته التسع)، أمكننا أن نحدد ونشخص الوقائع والأحوال تشخيصاً كاملاً في لحظتها الآنية بما يقارب الصورة الفوتوغرافية. لقد أفاض ذلك على المسلمين الكثير في توصيف ظواهر الواقع ورصدها، وهي المهمة الأساسية التي تشغل بال الباحث في العلوم الاجتماعية الإنسانية الحديثة بدرجة كبيرة.

إن هذا الاستعراض لجانب رئيس من كيفية إدراك الموروث الإسلامي للوجود من

حوله وأثره على إدراك الوقاع الجزئية، يدفعنا لإعادة النظر في هذا الموروث وسبر أغواره. إن تعبيراته في مجال الرؤية الكلية ـ على اختصار عباراتها ـ قد تنبئ بأن الكثير من نظريات القرن العشرين ومكتشفاته قال بها المسلمون، لكن بألفاظ أخرى معبرة عن لغتهم التي نسعى لفهمها والاقتراب منها.

فمثلاً، لماذا يعد الضوء ـ بالاساس ـ هو أسرع شيء في حركته؟ إجابة النظريات الحديثة ـ كما في نظرية «الفوتونات» تدور حول أن الضوء لا يسير في خطوط مستقيمة إنما في تموّجات وفي تقطعات، وهذا يعني أن هذا الضوء يفنى ثم يأتي غيره في لحظات تقدر بالفيمتو ـ ثانية وأقل. وهذا نفس ما قررته الرؤية التراثية الإسلامية لكن بألفاظ مختلفة: أن كل الأعراض ـ ومنها الضوء ـ غير ثابتة، تفنى وتحيا في ما يقترب من اللازمن.

وكذلك استخلص المسلمون عقلياً من مجموع المصادر السابقة التي نوهنا بها، وبناء على العقيدة الإسلامية التي تقول: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[٦٤]، استخلصوا نظرية أساسية تسمى «نظرية الإيجاد والإمداد».

فهناك إيجاد (أي خلق) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[٦٥]، وهناك إمداد، وهذا الإمداد ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[٦٦]، مستمر متواصل لا ينقطع... ولو أن الله سبحانه وتعالى قطع هذا الإمداد لأفنى المقطوع عنه، وليس معنى ذلك أن يموت، فالموت خلق جديد ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾[٦٧]، بل يفنى أي يصير إلى عدم محض... فالله سبحانه وتعالى لا يزال خالقاً، وقطعه الإمداد ـ والله سبحانه وتعالى المثل الأعلى ـ هو كقطع التيار الكهربائي عن المصباح فتختفي الصور وينطفئ نور الشاشة.

فالإمداد هو الذي يحفظ الإيجاد ويعطيه الحيوية، وهو من الله وحده لا يشاركه فيه أحد، ومن هذا فهموا معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) بمعنى انقطاع كل قدرة أو حول أو طاقة إلا بعون الله ومدده، وفهموا دعاء الرسول(ص) : (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) [٦٨]. لأنه لو أوكلني إلى نفسي فسوف أفنى، فلا حول لي ولا قوة في أن أوجد نفسي أو أن أبقيها إلا بالله العلي العظيم...وإذا وصل معتقد الفرد إلى هذا، وصل إلى درجات التوكل والتفويض، والانصراف إلى الله بكلية القلب والفكر والهمة في العبادة والحياة. فأنا منه وإليه، ومن ذلك أيضاً نفهم المناجاة النبوية: (لبيك وسعديك، والخير

كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك)[٦٩].

كانت هذه هي العقيدة السائدة حتى القرن التاسع عشر الميلادي، لكنها كانت حاضرة بالأساس في النخبة. فالأمة اليوم جهلت وتحولت إلى أمة أميّة تجهل دينها وقرآنها، تقريباً منذ ما بعد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)؛ حيث انتهى عصر توليد العلوم وبدأ عصر الزخم العقيم . فعلى سبيل المثال يقيم (الفخر الرازي) حفلاً ضخماً ليعرض فيه ألف دليل على وجود الله سبحانه وتعالى، بينما كان تعليق إحدى العجائز على ذلك: أكان لديه ألف شكّ في وجود الله؟ فهذا مما نقصده بالزخم العقيم.

ومن ناحية أخرى، فلابد من ملاحظة أن أسس بناء الحضارات شيء، وما تقوم عليه هذه الحضارات من فلسفة ورؤى شيء آخر. لكن هناك خلطاً شائعاً بين الفلسفة المؤسسة للحضارة وبين الواقع المثال لها؛ الأمر الذي يثير العديد من الجدالات. فالتقدم الحضاري له قوانينه، والتميز الحضاري له قواعده.

وقد تقدم المسلمون وهم يجيبون عن هذه الأسئلة الكبرى كأسئلة كلية أولية، وكذلك تقدم الغرب دون أن يجيب عنها! فهذه القضية وإن كانت تؤثر في صبغة الحضارة، إلا أن عملية البناء الحضاري لها وسائل أخرى. فالرؤية الكلية الخاصة بي تقول لي، اعبد الله، ومن ثم فإنني أبني كل حضارتي على: عبادة الله عزوجل فهي حضارة تعبّد، وعلى عمارة الكون: ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[٧٠] ومن ثم إذا تعارضت عملية البناء مع العمران وكانت ذات مفاسد، فإن منظوري يمنعني من المضي في هذا السبيل ويضطرني للبحث عن غيره.. فلا أخترع الطائرة الخارقة للصوت التي تفسد الأوزون وأبحث عن درء المفاسد قبل جلب المنافع!

وليس معنى هذا أن الآخر ـ الذي جعلها أسئلة نهائية وعاش بالشك ـ قد تقدم وبنى حضارته لأنه هكذا.. فالأساس هو السعي والجدية والاتساق. والغربي المعاصر سعى وعمّر دنياه على فلسفات ومفاهيم البراجماتية والتقنية والمادية، وسيادة مفهوم «السوق» وغيره، وانتهى إلى بناء هذه الحضارة بالحال التي هي عليها، وبنى حضارته بالجدية: أن يعمل بإتقان، أن يجيد العمل في فريق وبروح الجماعة، ولأهداف محددة، وبوسائل ملائمة.. الخ.. وفي الغرب اتسق واقعهم مع فلسفتهم حتى لو كانت فلسفة كفر وإلحاد، وبالاتساق يأتي الاستمرار.

وقد خفت صوت الحضارة الإسلامية وخبت نارها لاختفاء الروح الجادّة منها بعدما كانت سائدة شائعة في الأوائل كما نلحظه من مطالعة تراثهم، حيث بلغوا قمة المحبة والخوف والمعرفة في تعلقهم بربهم ودينهم، وغاية الإتقان والجهد والتأنّي في بناء دنياهم على أساس ذلك. واستكانت الحضارة الإسلامية عندما فقدت (الاتساق): الاتساق بين العقيدة والسلوك، بين الرؤية والنظام السائد: سياسيا كان أو اجتماعياً أو اقتصادياً. إن أسس الحضارة الإسلامية تراجعت بعد نحو الألف عام التي كان المسلمون فيها ينتجون حضارة وعلوماً، فبهتت خطوط المصحف وهبطت الفنون وتشرذم البرنامج اليومي للمسلم، ليس لأن الفلسفة والرؤية المؤسّسة كانت معيبة أو معاكسة لحركة التقدم، بل لمخالفة المسلمين لسنن التقدم الحضاري المشار إلى بعض منها.

ومن حيث البقاء فهناك حضارات بادت وعقمت؛ لأنها قدمت البنيان على الإنسان، أما حضارة الإسلام فقد بقيت ـ وإن تراجعت ـ لأنها قدمت الإنسان على البنيان، وهذا ليس له علاقة بالتقدم.

ثالثاً: إدراك الواقع بمعرفة سمات العصر:

نجمل تلك السمات فيما يلي:

١. الشعبية: وهي نتاج الدعوة إلى المساواة، ثم إلى التساوي في كل شيء، والمساواة وإن كانت أصلاً معتبراً، والتساوي وإن كان سنة في مجالات عديدة، إلا أن شيوع هذه الدعاوى وسم العصر بصفة سلبية وهي إذابة النخبة، التي كانت تمثل الرأس من الجسد، والتي ظلت تفكر وتنظر من أجل أن يأتي النشاط على وفق التفكر، والعمل على قدر العلم، فهذه الصفة تشتمل على محاسن تذويب الطبقات، وهو ما يتوافق مع النص النبوي (كلكم لآدم، وآدم من تراب) حيث يعبر عن المساواة مع الدعوة إلى التواضع، غير أن هذه الصفة تشتمل على مساوئ أيضا وهي ذهاب النخبة؛ ولذا أمرنا ربنا بعدم تنحيتهم في كل فن فقال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(٧١).

٢. وبذلك وسم العصر كما يقرر عبد الواحد يحيى الفيلسوف المسلم بأنه عصر سبق النشاط على الفكر، وكان في المنهج الإسلامي القلب يعلو العقل والعقل يعلو الجوارح، فأصبح الشائع الآن أن الجوارح تسبق العقل، وإذا كان هناك استعمال للعقل يسبق القلب ويخرج عن مقتضاه.

٣. وتميز العصر بشعور عام من النسبية، وأن الحق يمكن أن يتعدد، والمسلمون يرون أن الحق لا يمكن أن يتعدد، وأن الحق واحد، وهذه النسبية أثرت في الآداب، والفنون، والسياسة، والاجتماع، وسائر أنشطة الحياة، والإيمان بالمطلق كان سمة العصور الماضية في كل الأرض حتى سمي بعصر الإيمان faith age.

ولقد بدأت المسألة مع هيجل حيث حاول أن يوجد حلاً لبعض المشكلات الفلسفية التي تنشأ بالأساس في ذهن الإنسان عند تخليه عن الوحي، أو إنكاره له، وتدرج ما قاله هيجل إلى هذا الشعور بالنسبية الذي تحكم في التصرفات والسلوك، وملخص فلسفة هيجل: أن الله موجود، والكون موجود، والحداثة التي يدعون إليها تعني الاهتمام بهذا الكون، إذن هناك طرح يقضي على الخلاف، ويجعل رأينا واحداً وهو: أن نجعل الله حل في هذا الكون، فيصبح الكون هو الله، والله هو الكون، وهذا يعني أن الماديين على صواب لأنهم لا يرون إلا الكون، ثم جاء ماركس فأخذ فكرة الجدلية من هذه الفلسفة وأنزلها على الاقتصاد والدولة.

ثم جاء نيتشه (ت ١٩٠٠)، واعتبر أن كلام هيجل أفضل ما قيل، ولكنه أراد أن يتقدم خطوة على كلام هيجل حيث قال: إن الله ليس مفارقاً للكون، والمؤمنون يعتقدون أن الرب رب، وأن العبد عبد، وأن هناك فارقاً بين المخلوق والخالق، وهذا اعتقاد أهل جميع الديانات، فهم يعتقدون أن الله شيء والكون شيء آخر، كما قال تعالى في القرآن الكريم:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٧٢]، ثم قال نيتشه: إن الله ليس هناك ـ يعني ليس خارج الكون ـ واعتبر أن الله الذي يدعو له هيجل مات؛ لأنه ليس موجوداً، فوافق هيجل في عدم وجود الله خارج الكون، ثم قال إذن فهو ليس موجوداً، والهدف وراء ذلك أن الوحي أيضا ليس له حقيقة إذا كان صاحب الوحي مات فيصبح الوحي والرسالات أسطورة كبيرة، ويكون ليس هناك إلا هذا الكون، وهذا يشير لأمر عجيب، وهو ما يميز العقل أو ما يسمى سمات العقل.

لقد كانوا يريدون الانفصال عن الكنيسة المسيحية تماماً، والكنيسة واجهت حتى أنكرت علوماً كثيرة كما ذكرنا في موقف البابا بالخطاب المسمى «باسنت» هذا الانفصال وهذه الحداثة بعنف، وحاول هيجل أن يوفق بين أهل الحداثة وبين أهل الإيمان، لكن نيتشه قال: ليس هناك شيء حقيقي إلا هذا الكون، ولا وجود لله الآن.

ولكن هذا المذهب يجعلنا نتساءل: إذا كان الله غير موجود فكيف نحكم على

الأشياء؟ كيف نعرف أن الصدق والجمال والخير أشياء ممدوحة؟ وكيف نعرف أن الشر والكذب والظلم أشياء مذمومة؟

وأصحاب فكرة عدم وجود الله، يدعون إلى النسبية المطلقة، فيقولون ليس هناك ممدوح على الإطلاق، ولا مذموم على الإطلاق، وإنما هذه الأشياء ممدوحة عند من يراها ممدوحة، ومذمومة عند من يراها مذمومة.

وينشأ سؤال آخر وهو كيف نرى الكون؟ وتقتضي نظرتهم إلى الإجابة عنه بأنه كما تراه، فإذا كانت رؤيتك لهذا الكون أنه كئيب فهو كئيب بالنسبة لك، وإذا كان غيرك يراه سعيدا فهو سعيد بالنسبة له، مما يجعلنا نتمثل قول ربنا تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٧٣).

فهو قد ألغى الله من اعتقاده وفكره، ووضع مكانه الهوى، وبهذا الشكل يفقد المشترك في الكلام، وتنعدم فائدة الكلام تماماً، ثم نشأت بعد ذلك التفكيكية والبنيوية، ثم ديانة الفوضى.

كنا نذهب للشيخ أو القسيس نُحكمه فيما حدث حتى يحكم من الصواب ومن الخطأ، والآن إلى من نذهب لمعرفة الحق والباطل؟ قالوا: الآن تأخذ حقك بالقوة، فإذا كنت قوي فأنت على الصواب؛ لأنه ليس هناك معيار مطلق للحق والباطل، كلها معايير نسبية فما تراه أنت حقاً لمصلحتك الشخصية أراه أنا باطلاً، وليس هناك ما يلزمني أن أعتقد ما تعتقده ولا ما يلزمك أن تعتقد إلا القوة، هي التي تفرض على أرض الواقع من الحق ومن الباطل.

إذن فالواقع هو المعيار والواقع يصنعه الأقوى، فهل هذا يعني أن العلاقة بين الرجل والمرأة ستكون على هذا المنوال، بمعنى أن الرجل سوف يفرض الواقع ويكون هذا هو الصواب لأنه أقوى جسدياً؟ والمشكلة إذا تقوت المرأة وأصبحت أقوى من الرجل من الذي يحدد الصواب ويصنع الواقع؟ ففي الستينيات وجدنا المرأة تدخل المصارعة، وتلعب كمال الأجسام.

هذا ما أراده نيتشه وقد انتهى نيتشه سنة ١٩٠٠م، وترك لنا ما يمكن أن نسميه «النسبية المطلقة»، التي أصبحت سمة من سمات العصر، وانتشرت النسبية المطلقة بين رواد الفكر الأوروبي واقتنعوا بها، ولكنها كانت محاطة بمخاوف كثيرة أهمها ضياع

الاجتماع البشري، حيث سيبغي الناس بعضهم على بعض، ولن يكون هناك مسوغ لإلزامهم بالكف عن هذا الهرج والفوضى.

قالوا: لابد أن نجعل النسبية المطلقة فكرة قابلة للتنفيذ والتطبيق في حياة الناس، ونستطيع أن نقضي على هذه الفوضى بأن نضع معياراً يتفق عليه الناس في الإقدام على الفعل أو تركه، في القتل والغصب أو تركهما، وانتهوا إلى أن هذا المعيار هو «المصلحة» وهي ما تسمى بـ «الدبلوماسية النفعية» وقال كل من «جون ديوي» و«جيمس وكوهن» وهما يعتبران كهنة العلمانية، حيث جعلا المقياس الجديد الذي يضبط النسبية المطلقة، وجعلا الإنجاز هو القيمة المقدمة على كل القيم باعتباره يحقق تلك المصلحة، فأصبح من سمات العصر «الإنجاز».

٤- فالإنجاز أصبح المعيار في حين أن الأخلاق والقيم والالتزام كانت معيار التقويم، ونعى الله على أقوام جعلوا الإنجاز معياراً لحسن حالهم وهم على الشرك والمعصية، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[٧٤] وولد ذلك المعيار الجديد المنافسة غير الشريفة بين الأطفال في المراحل الأولى في المدارس، ونسيت المنافسة الشريفة التي قال الله فيها: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[٧٥]، ويحث على أحد أفرادها رسول الله (ص) حيث يقول: (لو يعلم الناس ما في الصف الأول، لكانت القرعة)[٧٦].

فذلك يؤدي بهم أن لا يُمنع الداعر فاسد الأخلاق، والذي قد تنتشر فضائحه على الألسنة من تولي أعلى المناصب القيادية في الدولة، حتى يمكن أنه قد يترأس الدولة إن كان سوف يحقق مصلحة البلد، بأن يحسن من حالتها الاقتصادية، ويحسن من وضعها السياسي، أما هذه الأمور فيقولون إنها أمور شخصية، وتختلف في مفهومنا عن قضية «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتختلف تماما عن فكرة التربية وفكرة التناصح؛ لأن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة في الدين، قائم أن ينهى الإنسان أخاه الإنسان عندما يراه على خطأ أو على خطر، وينصحه ويقول له: إن هذا لا ينبغي.

وقد يسأل سائل إذن لماذا يحاكمون مثل هذا الرئيس الداعر صاحب الفضائح؟ والجواب أنه يحاكم باعتباره خالف القانون الذي وضع على أساس النسبية المطلقة

والمصلحة، وليس باعتباره خالف الأخلاق والعرف والدين. وبهذا يعتبر القانون مقياساً للحكم على المخالفات، وهو ولّد ما يعرف بمقياسية القانون.

٥- مقياسية القانون: وهي سمة أخرى من سمات العصر، وتجيب تلك السمة عن عدة أسئلة هي: من الذي يضع القانون؟ والإجابة، هو مجلس النواب أو مجلس الشيوخ. ومن هم أعضاء هذا المجلس؟ والإجابة عند هذه السمة هم من ينتخبه الناس بكامل حريتهم على أساس النسبية المطلقة، والمصلحة أيضاً، وبهذا نكون قد وصلنا إلى «الديمقراطية»، وعلى هذا الأساس فإن ذلك المجلس يوافق على القرارات ويسن القوانين طبقاً للمصلحة، وهي تحقيق المنافع الخاصة به حتى وإن لم تكن من حقه، المهم أنه يقدر على تحقيقها لأنه قوي.

٦- وقبل أن نكثر من ذكر تلك السمات، دعونا نتكلم حول معاني السمات السابق ذكرها وهي: (الشعبية ـ النسبية ـ المصلحة ـ الإنجاز ـ مقياسية القانون). فإن هذه السمات النظرية لم يكن من الممكن تطبيقها على أرض الواقع دفعة واحدة؛ لأن هذا المسلك كان سيواجه برفض شديد من الناس، فصحيح أن السمات تبدأ بالنظر وبالفكر الفلسفي، ثم تتحول بعد ذلك إلى سلوك وواقع ملموس، فمثلا كان البروتستانت قديماً يعرفون بالأخلاق والتعصب الديني، فكنا نرى أن السائحة الأمريكية في سنة ١٩٦٠م هي الأفضل في التمسك بستر بدنها وتدينها.

وبعد عام ١٩٦٠ بدأت ظاهرة جديدة في الظهور تسمى «البتلز» وهي نوع من أنواع الموسيقى، وهذا بخروج مجموعة من البشر عن المألوف في المظهر، وفي الموسيقى، بعد أن كانت الموسيقى التي تستحوذ على الذوق هي موسيقى «بيتهوفن» التي إذا ما سمعت يذكر السامع مظاهر توحيد الله لتعبيرها عن خرير الماء، وحفيف الريح، فتبدل ذلك بـ«بتلز» وهي تعني بالإنجليزية الضوضاء والضجيج.

وبعد أن كان الناس يحبون الموسيقى القديمة التي تنسجم مع النفس، ذهبوا هؤلاء إلى أن الموسيقى تحررت من القيود، تحررت من النظام وتحررت من النسق؟ قالوا: لنا دعوا من أراد أن يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، دعوه يعبر عن طاقاته، يعبر عن ما بداخله، حتى وإن خرج عن النظام والنسق والمألوف، دون علم دون أي شيء، ثم ينشط فأصبح ذلك من سمات العصر، مما جعل الرفض غير مبرر، فمثلاً عادات الطعام التي وضعتها الملكة، وسمتها قواعد الأدب الملكية على الطعام، الشوكة في اليد اليسرى،

والسكين في اليد اليمنى، والملعقة مستعرضة، وأن المسلم إذا أراد أن يأكل بيده اليمنى فسوف يخالف هذا النظام، ويكون غير متحضر بالمرة، وإذا أراد أن يأكل الأرز لابد عليه أن يأكله بالشوكة، لأنه ليس مسموحاً لاستخدام الملعقة إلا في الشر، وإذا حدثت أي مخالفة في حضرة الملكة تستوجب هذه المخالفة قيام الملكة غاضبة من على المائدة، إذن يجب على الجميع تعلم قواعد أدب الطعام الملكية الإنجليزية، وإلا سيضع نفسه في مأزق.

تغير كل ذلك، وأصبح هناك عصر الهامبروجر، وهو يرمز للخروج عن نظام الطعام القديم، يمسك الساندويتش بيديه جميعاً ويشرب من علبة الكوكاكولا، ثم يمسح يده في ملابسه، دون احترام للعادات والنظام القديم.

٧- ما ذكرته مثالين للخروج عن النظام في جانب من جوانب الفن، وجانب من جوانب الاجتماع، أما في مجال الآداب نشأ ما يسمى بـ «الاستراكشر» وهو ما يعني التفكيك، وهو أدب غير مفهوم ويأتي بأشياء ليس لها علاقة ببعض بالمرة كأن يقول: تخيل أننا في منطقة من أرض الجولف، ثم يقول: وهناك شخص يلقي محاضرة للسيدات، ثم يقول: إذن السمك نوع من أنواع الأحياء. فعندما تقول: أنا لا أفهم ما تقول. يقول لك: لأنك لست مبدعاً، وظلت هذه السخافات تسيطر على جامعتنا مدة طويلة، حتى جاء الدكتور عبدالعزيز حمودة رئيس قسم اللغة الإنجليزية وآدابها في آداب القاهرة.

المشكلة أن ما بعد الحداثة مرحلة لا نهائية، إذ تعتبر هذه المرحلة نفسها نهضة أحدث من نهضة الحداثة نفسها، واعتبروا أن النهضة الأولى تمكنت من تنحية الدين، وهم يهدفون لتنحية الأصول والمبادئ والقيم الباقية في حياة البشر بدعوى أنها تقيد الإبداع وتقيد الحرية وتقيد الفكر، فسعت تلك المرحلة لإلغاء الأدب القديم والفن القديم وأيضاً مفهوم الأسرة القديم، وكان كل ذلك هين بعد إلغاء الدين من حياة الناس.

وبالفعل أنشئت كنائس لتزويج المثليين، وأصبح هناك مفهوم جديد للأسرة، قد يكونا فيه الأب والأم ذكرين، أو أنثتين، ولا يوجد ما يلزمنا بشكل الأسرة القديم.

وبهذا الأسلوب الجديد يغيب القدر المشترك بين جماعة البشر بالكلية، ويكثر الهرج والقتل واستخدام القوة لعدم وجود قاعدة للنقاش والتفاهم، خاصة وقد أرادوا أيضا أن

يغيروا اللغة، وقالوا اللغة التي اعتبرت الزوجة إنسان أنثى، نغيرها ونجعل الزوجة إنسان ذكر، وتصبح الأنوثة هي الذكورة، والذكورة هي الأنوثة وبتغير مفاهيم كل من (الدين ـ الثقافة ـ الأسرة ـ اللغة ـ الدولة) تنقلب كل الموازين، وبهذا نخرج عن كل المبادئ والمقاييس التي كان من الممكن الرجوع إليها، فتبرز سمة الخروج عن النظام والقواعد والمألوف.

إذن فالخروج عن المبادئ والمألوف، سمة من سمات العصر، وتنتج هذه السمة مجتمعاً غير قادر على التفاهم مع أفراد جنسه، ويكون لكل منا لغة لا يفهمها إلا المتكلم وحده ويصبح العالم ٦ مليارات لغة فإما أن يقتل بعضنا بعضنا، وإما أن نعتزل لعدم وجود مشترك بيننا.

فاتجاه ما بعد الحداثة يسعى لإلغاء الجنس، ويجعلون الإنسان هو الذي يحدد جنسه وليس الله، فإذا خلقه الله على صورة الرجل، وهو يريد أن يكون امرأة، فيتحول إلى امرأة في جسد رجل، أو العكس إذا أراد أن يكون رجل وخلقه الله امرأة، فلا يسلم بهذا الأمر ويتحول إلى رجل في جسد امرأة. وبهذا تتجاوز مرحلة ما بعد الحداثة كل الثوابت والقيم التي تعارف عليها جماعة البشر، وبرز التجاوز كسمة جديدة من سمات العصر.

٨- أصبح التجاوز من سمات العصر، فتم فتجاوز مرحلة الأسرة Family إلى مرحلة copuple وهي تعني الثنائية، أما الأسرة family تعني زوج ذكر، وامرأة أنثى، وجعلوا الأسرة التقليدية أحد أنواع الـ couple؛ لأن الـ couple تعني الثنائية، إما رجل وامرأة، أو رجل ورجل، أو امرأة وامرأة، فأصبح المصطلح الجديد أعم وله ثلاثة أشكال من الثنائية، وهم يسعون إلى أن تكون الأشكال الثلاثة مقبولة في المجتمع دون نكير، وإذا تكلمنا لماذا لا تكون الأسرة رجل وامرأة فقط، يردون علينا ويقولون نحن تجاوزنا هذه المرحلة.

ولحل مشكلة إتمام تلك الثنائية الجديدة أصبح هناك تبني الأبناء، من زوجين رجال، أو زوجين إناث، وأصبح هناك تأجير للأرحام، وأصبح هناك بنك لمني الرجال، ويفكرون حاليا في زراعة رحم للرجل. ونحن عندما نتعامل مع هذه القضايا كعلماء لابد علينا من معرفة أصل الموضوع، فلا ينبغي لنا أن ننظر إلى مسألة تأجير الأرحام ـ مثلا ـ على أنها ليس لها علاقة بذلك كله.

وهو أمر تولد من القول بالتطور، ومن النسبية، وهذا التجاوز نراه في مناهج العلوم، وفي السعي إلى تجديد النظريات، وفي متطلبات الدرجات العلمية، وفي تأليف الكتب ونقل العلم، وفي (الموضة) وهي آخر أساليب وأشكال الملابس والأثاث وفنون المعمار ومدارس الشعر والأدب واتجاهات الفنون، وفي المقابل كان لدينا الحفاظ على الموروث، وعلوم النقل وإتقانها، والسعي إلى معرفة الحقائق واستكمالها، ولقد ظل الإعلام الأمريكي يعرض أفلامه وبرامجه الإعلامية لخدمة تلك المعاني، فيخرج المشاهد من الفيلم وقد وصل له معنى من هذه المعاني أو أكثر أو جميع المعاني مجتمعة.

وينبغي أن نؤكد على ضرورة أن يعلم المسلم أن النسبية المطلقة ضياع، وباطل والحق ما يعتقده هو من الإطلاق، ويعلم أن هذا الكون مخلوق لخالق، وأن الله يكلف بالأعمال الصالحة لإصلاح النفس وإعمار الكون، وأن الإنسان محاسب على عدم الالتزام بهذه التكليف، هذا ما نريد أن نؤكد عليه في مواجهة تلك المعاني الجديدة، التي أصبحت سمات للعصر الذي نعيشه.

٩- ومن سمات العصر هاجس التطور، وأنه لا ثابت حولنا، وأن الإنسان نفسه محلا لهذا التطور، وأنه إذا كان قد أتى من حالة الفرد فإنه قد يصل في المستقبل إلى شيء آخر، رأسه كبيرة، وجسمه صغير، أو يتكون من خلقة الإنسان والربوت معا، وأنه يمكن القضاء على الموت ويمكن تكوين حكومة عالمية تهيمن على العالم الذي يجب أن يجزء إلى ٤٠٠ دولة بدلا من ١٩٦ دولة الآن، وأنه يمكن إلغاء المؤسسات مثل المدرسة والمستشفى ودواوين الحكومة عن طريق ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة.

وأنه يمكن كذلك عن طريق الهندسة الوراثية السيطرة على الكون الخارجي، ومع هذا التصور الذي في ظاهره القوة، نرى خوفا مريعا في النفس، فيتمثل في الأدبيات التي ظهرت من خلال الروايات والسينما من الوحش الذي لا يمكن قهره أو المكيروب غير القابل للعلاج أو غزو من الفضاء للأرض أو تحول البشر إلى سادة وعبيد، أو غير ذلك كثير.

ولكن أتعس فكرة في ذلك كله هي فكرة إلغاء الموت، ثم يليها في التعاسه إلغاء الثوابت الخمس.

وهناك سمات أخرى تُعلم بالتأمل والتدبر في مجرى الحياة.

خاتمة

إذا تبنى الداعية النموذج المعرفي، وفهمه، وأدرك كيف يتعامل مع النصوص الشرعية، وكيف يدرك الواقع، فإنه يكون قادراً على أن يصل بينهما، تحت سقف اللغة العربية، والمقاصد الشرعية، والمصالح المرعية، وإجماع الأمة، والاستئناس بنتاج فقهائها ومجتهديها من النص الشرعي الشريف [القرآن والسنة] فإذا هو فعل ذلك يمكن أن نطلق عليه أنه قد عاش العصر، ولم يخرج من الأصل، والله أعلم.

الهوامش:

١ – الكهف/ ٥١.

٢ – الرحمن/ ١–٣.

٣ – الاحزاب/ ٤٠.

٤ – الحجر/ ٩.

٥ – الأنبياء/ ٩٢.

٦ – البقرة/ ١٤٤.

٧ – الحجر/ ٧٨.

٨ – المائدة/ ٤٨.

٩ – آل عمران/ ١٩.

١٠ – المائدة/ ٣.

١١ – الذاريات / ٥٦ – ٥٨.

١٢ – هود/ ٦١.

١٣ – البقرة/ ٦٠.

١٤ – الشمس/ ٩–١٠.

١٥ – الزلزلة/ ٧، ٨.

١٦ – الاعراف/ ١٨٠.

١٧ – المائدة/ ٨.

١٨ – البقرة/ ١٠٩ – ١١٠.

١٩ – يوسف/ ١٨.

٢٠ – المعارج/ ٥.

٢١ – المزمل/ ١٠.

٢٢ – الاسراء/٧٠.

٢٣ – الاحزاب/ ٧٢.

٢٤ – رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

٢٥ – الإسراء/ ٤٤.

٢٦ – الحج/ ١٨.

٢٧ – الجاثية/ ١٣.

٢٨ – الحج/ ٦٥.

٢٩ – القدر/ ١ .

٣٠ – الدخان/ ٣.

٣١ – آل عمران/ ٩٦.

٣٢ – رواه ابن ماجة.

٣٣ – الواقعة/ ٧٩.

٣٤ – النور/ ٦٣.

٣٥ – الحجرات/ ٢.

٣٦ – آل عمران/ ٨١.

٣٧ – النساء/ ١

٣٨ – الاسراء/ ١٢.

٣٩ – آل عمران/ ٢٦.

٤٠ – الزخرف/ ٣٢.

٤١ – البيهقي في الزهد، والبغدادي في تاريخ بغداد.

٤٢ – الحج/ ٧٨.

٤٣ – العنكبوت/ ٦٩.

٤٤ – المائدة/ ٢٧– ٣٥.

٤٥ – البقرة/ ٢٥١.

٤٦ – الحجر/ ١٩.

٤٧ – الرحمن/ ٩.

٤٨ – الشورى/ ١٧.

٤٩ – الحديد/ ٢٥.

٥٠ – الأنبياء/ ٤٧.

٥١ – الأعراف/ ٨.

٥٢ – الأعراف/ ٨٥.

٥٣ – الرحمن/ ٢٩.

٥٤ – النمل/ ٦٩.

٥٥ – الزمر/ ٩.

٥٦ – فاطر/ ٢٨.

٥٧ – يوسف/ ٧٦.

٥٨ – يوسف/ ١٨.

٥٩ – رواه الترمذي، وابن ماجة.

٦٠ – متفق عليه.

٦١ – البقرة/ ١٤٣.

٦٢ – الأنبياء/ ١٠٧.

٦٣ – أخرجه البيهقي في الشعب.

٦٤ – الرحمن/ ٢٩.

٦٥ – مريم/ ٦٧.

٦٦ – البقرة/ ١١٧.

٦٧ – الملك/ ٢.

٦٨ – من حديث أنس قال النبي(ص) لفاطمة: «ما منعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين». أخرجه النسائي والبزار، فتح الباري، الجزء ١٢ .

٦٩ – جزء من حديث: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك. أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك) ١٦٧٢ صحيح مسلم، جزء ٦، باب ٢٦، كتاب صلاة المسافرين.

٧٠ – هود/ ٦١.

٧١ – النحل/ ٤٣ .

٧٢ – الشورى/ ١١.

٧٣ – الجاثية/ ٢٣.

٧٤ – الشعراء/ ١٢٨ – ١٣٠.

٧٥ – المطففين/ ٢٦.

٧٦ – ابن ماجه، وابن أبي شية في مصنفه، والبيهقي في الكبرى.